قواعد أساسية ومنهجية في البحث العلمي والكتابة الأكاديمية والصحفية والروائية1  
  
خير الكلام ما قل ودل  
‘Less is More!’  
  
د. وليد أحمد السيد  
دكتوراة في فلسفة العمارة من (UCL) – جامعة لندن  
  
الكتابة, عموما وبكافة أشكالها, هي موهبة أساسا, وفن يعتمد إلماما واسعا وأساسيا باللغة المستعملة, تتطور بالممارسة والتمرين والخبرة. وليس كل من أمسك قلما يمكن أن يصبح كاتبا متميزا, لكن كل من تمرن على الكتابة وأدرك مجموعة أساسية من القواعد وأبجديات الكتابة الصحيحة يمكن أن يكتب أفكارا يسهل فهمها وانتقالها للقراء على اختلاف مستوياتهم الثقافية والإدراكية وتؤدي الغاية العلمية أو الأكاديمية أو البحثية وسواها من المراسلات الشخصية.  
والكتابة عكست تاريخيا نقطة تحول ومنعطف مهم لانتقال البشرية من مرحلة التفاهم بالرمز والإشارة إلى التعبير عن الأفكار ونمو القدرة الذهنية وتفجر الطاقات الإبداعية للجنس البشري. وكان اختراع الكتابة, والتعبير الفني, يمثل مهد الحضارات ونشأة وتطور العلوم والفنون وقدرة الجنس البشري على التميز والسمو بالروح والعقل معا. فاللغة هي كما يشير علماء الألسنيات أداة ومحتوى في نفس الوقت. فكما أنها هي الوسيلة التي نعبر من خلالها عن العالم حولنا, فمحددات كلماتها هي في الوقت ذاته تصوغ عقولنا. ولذلك يعمد بعض المفكرين وعلماء الألسنيات لربط الفكر باللغة ربطا لصيقا, وأن اللغة ليست مجرد أداة للفكر بل هي القالب الذي يتشكل به الفكر. وربط بعض الباحثين بين اللغة والفكر وعلاقتهما وبين خصائص اللغة والأمة التي تتكلمها, معتقدين بأن كل أمة تتكلم كما تفكر وتفكر كما تتكلم. وبحسب ما يعتقده علماء الألسنيات, ومنهم نعوم تشومسكي, فاللغة ليست أداة فقط, أو محتوى فقط, لكنها الوعاء المحكم الذي يحوي المعرفة ويقولبها بقالبه. فاللغة تؤثر في رؤية المجتمع للعالم وبالتالي في طريقة تفكيرهم. فبالإضافة لقدرة اللغة على تحديد قدرة المجتمع على الكلام تحدد هي أيضا قدرته على التفكير. ولذلك فهي ترسم حدود المعرفة, فلها نظام دلالات محيطة خاصة بها يتجاوز المعاني المباشرة للكلمات وتعبيراتها ليمتد ليشمل تراكمات التجارب المجتمعية والحياتية والبيئية وسواها بما تحتمله من خطأ وصواب, وهذا ينعكس بمرور الزمن على مرونة اللغة أو جمود التجربة الإجتماعية وتحدد العلاقة بين اللغة والفكر بدرجة كبيرة, فإذا ضاق الفكر ضاقت اللغة والعكس بالعكس.   
  
وبعيدا عن هذه المقدمة العامة النظرية ومجالات العلاقة بين اللغة والفكر – والتي تطرقنا لها في مساحات وأبحاث منشورة – يعنينا في هذه السلسلة تقديم مجموعة من القواعد العامة التي تنتظم بها الكتابة السليمة, على مستويات أكاديمية بحثية رصينة, وبخاصة لطلبة الدراسات العليا من مجتمع المعماريين. ولنا معشر المعماريين خصوصية تجعلنا أقل حظا من بقية أقراننا من الباحثين في مجالات العلم الأخرى. وهذه السلبية لخصها المفكر الجزائري محمد أركون في أحد مؤتمرات الآغاخان في السبعينيات حين وجه لنا النقد بعدم قدرتنا على التعبير عن أفكارنا كما يفعل بقية المثقفين, والسبب هو طبيعة التعليم المعماري الذي ومنذ اللحظة الأولى يحرف الطالب المعماري, خريج الثانوية العامة والمتفوق والنجيب, عن استعمال أدوات اللغة لاستعماله لغة الرسم والإسكتشات للتعبير عن أفكاره. وهذا صحيح, فكبار المعماريين الممارسين, ومن خبرة عملية لكاتب هذه السطور, تجد أحدهم يعمد لرسم اسكتشات فورا لتوضيح فكرته, وقلما تجد أحدهم يعمد لكتابة مقالة أو بحثا لتأكيد فكرة ما أو وجهة نظره بما يفسر الجفاف الكبير في مجال الكتابة والنقد المعماري عربيا وبامتياز– والأدهى من ذلك أنه لو حاول فغالبا لن يمكنه ذلك! والسبب بسيط, فصواميل الكتابة في عقله قد علاها الصدأ, ولا يلام, فالكثير من الباحثين وحتى الأكاديميين المعماريين قد لجأوا لوسائل أخرى غير الكتابة للتعبير عن أفكارهم, فتجد الكثير من الأكاديميين وقد برعوا في "فن الكلام", ويمكن لأحدهم أن يرهق أذنيك يوما كاملا بمحاضرات طويلة جوفاء تبعث على السأم ودون ملل أو كلل. بينما لو حاول كتابة صفحة واحدة فقد لا يحسن كتابتها بطريقة سلمية, ولو قدم بحثا للنشر الأكاديمي في مجلة علمية محكّمة فقد يرفض ولا ينشر – مع ملاحظة أن الكثير من الأبحاث التي تتم إجازتها وبخاصة في العالم العربي تعاني من مشكلات أساسية في التركيب والفكرة والفرضية والمضمون بما سنبينه في هذه الحلقات المتسلسلة تيسيرا على الطلبة والباحثين المقدمين على هذه المغامرات البحثية لتجنبها واختصار الوقت والجهد عليهم وعلى مشرفيهم, وبخاصة لمن ينوي إكمال دراسته العليا في معاهد غربية عريقة ورصينة وليس الجامعات العادية التي تقبل بكل ما هب ودب وما أكثرها حتى في الغرب المتقدم!  
  
والكتابة عموما هي من ضروب التعبير الفكري السهل الممتنع, وكم من الناس حاول الكتابة لأول مرة تحت مظنه استطاعة التعبير عن الأفكار بيسر وسهولة, ليكتشف الجميع أنها, وبحسب تعبير البروفسور "بيل هيلير" مشرف كاتب هذه السطور بجامعة لندن لمرحلة الدكتوراة, أصعب من تسلق جبال الهيمالايا – ويعمد بعضهم لتشبيهها بصعود التلة فعلا وبخاصة الكتابة الأكاديمية التي تزداد صعوبة مع الإستغراق فيها. وهذا يتجلى في الأعمال الفكرية التي تتطلب بناء أطروحة وأفكارا متسلسلة. ومن أصعب هذه الأعمال الفكرية على الإطلاق هي كتابة أطروحة الدكتوراة, حيث وصفها لكاتب هذه السطور البروفسور "فيليب ستيدمان" الأستاذ الشهير بجامعة كامبردج, على أنها أهم عمل فكري يمكن لباحث أن يقوم به في حياته كلها لما تتطلبه من استنزاف فكري ووقتي وجهد متراكم يكاد يتفجر معه وجدان وعقل الطالب. ولذلك فالشائع في مرحلة الدراسة لتحضير رسالة الدكتوراة أن يهرع الطالب أو الطالبة أكثر من مرة قارعا باب غرفة مشرفه الأكاديمي ليعلن أنه قد قرر عدم الإستمرار في الدراسة. وعندها يجتهد المشرف في طمأنة الطالب "والطبطبة" على كتفيه بأنه شعور يمر به كل من مر في هذه التجربة, ثم يطلب المشرف من الطالب أو الطالبة العودة بعد يومين وأن يحاول أن يرخي عضلاته الفكرية قليلا كي يستجمع قواه ويتخذ القرار السليم وهو في حالة نفسية وذهنية أفضل, ليعود الطالب بعد أيام وقد قرر الإستمرار ثم حين يشرع بالكتابة مجددا تعود حالة الشد الذهني ويصاب بالتوتر, ثم يعمد للقراءة للهروب من الكتابة ومشكلاتها وتعقيداتها, ثم يعود للكتابة مجددا وتستمر متوالية الكتابة والشد الذهني والإحباط والإسترخاء إلى ما شاء الله. وتكاد تسمع هذه القصص كما يروي العديد من المشرفين من كافة طلبة الدراسات العليا في المعاهد الغربية – والسبب هو عدم إدراك صعوبة الكتابة وضرورة الممارسة الخبرة فيها وإلزامية إتقان قواعد أساسية فيها.  
  
وكما ذكرنا فللأطروحات الفكرية والأعمال التي تتطلب إلتزاما وقتيا وذهنيا ووجدانيا من الباحث حالة خاصة ومتميزة نظرا لتركيبتها التي تشبه حبكة القصة تدرجا في التعقيد والتي سنناقشها في مساحة خاصة. ولذلك فحتى الكاتب والباحث المتمرس, يمكنه كتابة مائة بحث قصير وورقة محكّمة ولكن قد يصعب عليه إتمام أطروحة دكتوراة واحدة, فالورقة يمكن كتابتها وإنهائها من شهرين إلى ثلاثة, بينما تستغرق الأطروحة سنوات وتتطلب قراءة مئات الكتب وبناء فرضية ونظرية والقيام باختبار (cross examine) المعلومات وتحليلها وتمحيصها ومناقشتها. ومن معرفة شخصية لكاتب هذه السطور بباحث في جامعة كامبردج ببريطانيا أنه نشر "دزينتين" من الأوراق المحكّمة لكنه فشل في إتمام أطروحة الدكتوراة التي عمل عليها لأكثر من عشر سنوات قبل أن يتوقف عن الكتابة وييأس. وأعرف كذلك بضعة طلاب وطالبات في مرحلة الدكتوراة – وأنا هنا أتكلم عن الجامعات العريقة والرصينة, إذ يمكن إتمام أطروحات دكتوراة في بعض معاهد الغرب بالمراسلة, وأحيانا بوقت قصير جدا يصل لسنتين, وأحيانا وكما كشفت مصادر (FBI) بالتزوير وشراء الشهادة – لكن في الجامعات الرصينة أعرف مجموعة من الطلاب والطالبات ممن لم يكمل كتابة الأطروحة, وبعضهم بدأ منذ أكثر من عشرة أعوام وما زال معلقا يتأرجح بين ترك الدراسة والإستمرار بكتابة الأطروحة. الهدف من الكلام هنا ليس تخويف المقدمين على الدراسة بقدر ما هو نثر "فوتونات الضوء" أمام أقدام الباحثين, وبتوفيق الله ودعاء والديهم - وببعض "القطران" مع دعائهم لنا بظهر الغيب وكصدقة جارية بعد رحيلنا عن هذا العالم وهذه النصائح من خبرة متواضعة للعبد الفقير الذي مر بالتجربة - يمكن بعون الله إجتياز طريق شائك وصعب وحافل بالتضحيات الكثيرة. ولكن بالأساس تجتهد هذه السطور لتقديم نصائح ابتدائية وأساسية لطريقة الكتابة الأكاديمية السليمة التي تختصر الطريق على الباحث باختيار الطريق الأقصر. ولتهوين الأمر على الطلبة أيضا فلأطروحة الدكتوراة, وتأليف الكتب الرصينة, خصوصية حتى عن أطروحة الماجستير التي تميل للسهولة النسبية عن سابقاتها.  
  
من أولى القواعد الذهبية المهمة, والتي يفشل في تحقيقها بعض عتاولة الكتاب والباحثين العرب وحتى بعض حملة الشهادات العليا وبعض الأساتذة في بعض الجامعات العربية عموما هي قاعدة "خير الكلام ما قل ودل!", وكثيرا ما يعيد المشرف المتمكن, مثل البروفسور "بيل هيلير" وهو بالمناسبة من أشهر الكتاب وأكثرهم عبقرية في الكتابة الرصينة لدرجة المثالية المزعجة لطلابه, كثيرا ما يعيد المشرف بعض الفصول وعليها ملاحظة (Less is more)! فالبحث العلمي والأكاديمي والكتابة الرصينة لا تعرف "اللف والدوران والمرواغة" مطلقا. وبتعبير الإنجليز (go to the point!). وقد ذكر مشرف كاتب هذه السطور أكثر من مرة أن من أصعب ما يواجهه المشرف مع طلابه هي محاولة "إقناعهم" بحذف أكثر من نصف المادة المكتوبة من أطروحاتهم. فالشائع هو أن يقرأ الطالب معلومة فيضيفها لبحثه, ثم يجد معلومة أخرى تثير اهتمامه فيضيفها, وهكذا حتى تتحول الفصول عنده "لمستودع معلومات" كلها مهمة بنظره ولا يستطيع حذفها. وهذا مرده بالأساس عدم توفر نظرية وفرضية بحث أساسية, بحيث غالبا ما يحاول الطالب أن ينشئ تركيبة بحثة بطريقة "مقلوبة" بناء على المعلومات التي تقع بين يديه وليس العكس, كما تكون تركيبة البحث مهزوزة وضعيفة يحاول معها الطالب أو الطالبة تعويض هذا النقص الأساسي بالكثير من العمل "غير النوعي" أو بالإنجليزية ومع الإعتذار للتعبير (donkey work!). وهذا لا يخفى على القارئ الخبير المتمكن وبخاصة المشرف أو الممتحن. وقد مر على كاتب هذه السطور بعض الأوراق العلمية كعضو لجنة تحكيم, وبعضها لا يصلح لأن يكون "رسالة حب" من النوع الذي مارس كتابته صبية الحي حبا وهياما بجارتهم الحسناء. ومن بعض الأوراق "المدهشة" التي وردت على كاتب هذه السطور إحدى الأوراق التي وصل عدد صفحاتها لما يزيد على السبعين أو الثمانين صفحة (!) والتي تمت إجازتها بمعهد عربي – علما بأن أطروحة الماجستير في معاهد الغرب الرصينة لا تتجاوز الستين صفحة. ولو قدمت هذه الورقة لأي مجلة أو معهد غربي رصين, أو حتى بعض المجلات العربية المرموقة كالمستقبل العربي مثلا التي تشترط 4000 كلمة كحد أقصى, لتم رفضها على الفور وإعادتها للباحث لرمي ثلاثة أرباعها "في البحر" – إذ في الغالب أو الأكيد احتوائها على ما لا نهاية له من السرد الوصفي والتصنيفات والعرض الأدبي والمراجعات التي "تقتل" الأطروحة الأساسية للورقة. فالإسترسال في الكتابة إلى ما شاء الله هي ضعف بتركيبة الورقة ومؤشر على غياب أي فرضية قوية, بحيث يحاول بعض الباحثين تعويضه بمزيد من الجهد لإيهام القارئ بقوتها مما يفوت القارئ العادي لكن لا يجيزه المجتمع العلمي والأكاديمي الرصين. فضعف تركيبة مثل هذه الأوراق يعود لأنها إما أنها مقتبسه من أطروحة أكبر كالدكتوراة مثلا على مبدأ (cut & paste) أحيانا, وربما ترجمة حرفية, وربما كانت فصلا كاملا منها, كما يفعل الكثير من الباحثين بإعادة إنتاج أطروحاتهم كأوراق بدون مراعاة تغير التركيبة. لكن نشرها كورقة بهذا الشكل يخرجها من إطارها العام ويجعلها أكبر من الورقة وأدنى من الأطروحة – وهذا خلل أساسي! ومن لا يحسن عرض الأفكار بتركيبة رصينة في عشرين صفحة لن يسعه ذلك في ألف صفحة!  
  
مشكلة الإسترسال والإسهاب والإطناب والجناس والطباق هي مشكلة عامة في الفكر والوعي العربي, وربما هي تركيبة أساسية في بنية الذهنية العربية, لكن يغيب عن الباحث العربي التمييز بين الكتابة الروائية التي نتعلمها بالمدارس الأساسية وبين البحث الأكاديمي. والمشكلة الأساسية تتبلور لأن الطالب المعماري لا يمارس الكتابة غالبا طوال سنوات التعليم المعماري الأساسية – فربما يكون آخر مقال أو قطعة أدبية كتبها كانت في امتحان الثانوية العامة وحاز فيها على علامة كاملة لاحتوائها على السجع والجناس والطباق المطلوب في تلك المرحلة. لكن هذا الطالب النجيب حين يقرر الإلتحاق بالجامعة وعمل أطروحة ماجستير, بعد سنوات عديدة وطويلة من الرسم والفن, يجد أنه لم يمارس أي نوع من الكتابة سوى كتابة الرسائل القصيرة على الجوال أو رسائل الغرام والرسائل الشخصية على الإيميل أو البريد الإلكتروني! يضاف إلى ذلك ضعف اللغة عند الكاتب واضمحلالها خلال سنوات طويلة من الخمول للملكة (بفتح اللام) الذهنية.  
  
هذا كله بالرغم من أن لنا, كعرب ومسلمين عموما, شواهد من النص القرآني الفريد في البلاغة والفصاحة مع الإيجاز لدرجة الإعجاز, إلا أننا مع ذلك ننزع للإسترسال والإطالة واستخدام الكلمات المترادفة. ولذلك تجد مثلا حتى في الموشحات الأندلسية, أو الأغاني الكلاسيكية لعبد الحليم وأم كلثوم, موّالا ابتدائيا في مستهل الأغنية تصل مدته لعدة دقائق والمغني يتأرجح بين كلمتي "يا ليل يا عين!", وتجد عبد الحليم, مع الإعتذار للجميع, يغرق في كلمات "جلست والخوف بعينيها, تتأمل فنجاني المقلوب" ويعيدها بأكثر من لحن وترنيمة قبل أن تبدأ حبكة الأغنية وتشتد ذروتها ويحمى وطيس الملحمة الغرامية. ومن أروع ما ورد في بلاغة النص القرآني الفريد قصة عن إبن المقفع حين حاول تأليف بضع "آيات" على وزن مثيلات لها من القرآن العظيم’ لا جحودا أو زندقة ولكن "فخرا" بفصاحة لغته, فكتب بضعة "آيات ابتدعها" كالتالي (الفيل, ما الفيل, وما أدراك ما الفيل, له خرطوم طويل), وبعد كتابتها خرج للطريق, فقيض الله تعالى له طفلا قرأ آية (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين), فلما سمع ابن المقفع الآية الكريمة عاد فورا لبيته وأمسك "بالآيات المبتدعات" التي ألّفها ومزّقها وقال "سبحان الله, آية واحدة لخصت بكلمات معدودات قصة طوفان نوح عليه السلام كاملة! هذا كلام لا يمكن "الإتيان بمثله" كما تحدى الله عز وجل الجن والإنس مجتمعين على أن يأتوا بمثله, أو بسورة أو حتى آية واحدة, في سورة البقرة ثم قرر سبحانه وتعالى في الآية التالية أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - ونصيرا".  
  
ولذلك فأولى القواعد الذهبية التي يجب أن تكون حاضرة في عقل وضمير ووجدان أي باحث وكاتب أكاديمي هي "خير الكلام ما قل ودل", وهي خبرة وممارسة مكتسبة لا موهبة تتطور ويتم صقلها مع الزمن وبالتدبر والملاحظة. ولذلك فجزء من الكتابة عملية أخرى تعرف "بتحرير النص" أو (editing), وعملية التحرير قد تصل لعشر مرات أو عشرين, تتم خلالها مراجعة ما كتبت وإعادة كتابته ثم تركه فترة لإراحة الذهن وقراءته مجددا بما يعرف "بالعين الطازجة" أو (fresh eye), حيث يسهل تبين الأخطاء بعد العودة إليها وقراءتها بذهن غير مأزوم كما سيفعل أي محكم أومشرف يعاين الورقة أو البحث أو المقال. وقد ذكر لي البروفسور "بيل هيلير" أنه يكتب الورقة البحثية أكثر من 15 مرة! بمعنى أنه يعيد قراءتها وتحريرها مرات ومرات لتنقيح الأفكار والأخطاء. وقد طلب "بيل هيلير" من كاتب هذه السطور بعد إتمام أطروحة الدكتوراة كتابة 300 كلمة كملخص للأطروحة لإرساله للممتحنين لمعرفة موضوع الرسالة ونتائجها وللموافقة على تحكيمها. وقد كتبتها أكثر من 10 مرات, في كل مرة يختصر فيها المشرف الجمل ويعيد تركيب حتى ما اقترحه هو سابقا وقال لي بالحرف الواحد:"كتابة الملخص من 300 كلمة من الصعوبة والأهمية بمكان أن الملخص إن كتب بإهمال قد يحذر الممتحنين ويعطيهم فكرة سلبية عن الرسالة مسبقا!". وفضلا عن ذلك فالقاعدة هي أنه كلما صغرت المساحة كلما زاد التحدي برصف الكلمات بمواضعها كالدرر على التاج ببخل شديد ودون إسراف أو إسفاف.  
  
ومن أمثلة تحرير النصوص الطويلة كتابة جملة على النحو التالي (التفاحة التي سقطت على إسحاق نيوتن أثناء جلوسه تحت الشجرة في حديقة منزله في القرن الثامن عشر) وهذه الجملة الطويلة بما تحويه من كلمات قد لا تكون كلها ضرورية يمكن الإشارة إليها ضمن سياق النص بكلمتين مثلا بما لا يؤدي إلى بتر المعنى ويمكن الإكتفاء ب (تفاحة نيوتن). ولذلك فالكتب العالمية والمؤلفات الرصينة غالبا ما تكون مفعمة بالكلمات المتكدسة في الجملة الواحدة التي تتطلب القارئ إلماما ثقافيا واسعا لفهم مقاصدها, وأي قارئ غير مثقف وملم بجوانب عديدة لا يمكنه متابعة المقصود. ومن لا يصدق كاتب هذه السطور فليحاول قراءة كتاب مثل "الإستشراق" لإدوارد سعيد مثلا بطبعتيه العربية والإنجليزية وسيفهم ما نقصد هنا, حيث يحتاج القارئ الحصيف وليس العادي إلى قراءة الكتاب أكثر من مرة لفهمه جيدا حيث يبدو الجهد الفكري الواضح والمصادر الغنية في كل جملة وفقرة – وهو ما يميز الكتابات العلمية الرصينة عن سائر الكتب التي تغص بها المكتبات وتنتجها عقول الأكاديميين والكتاب العاديين.  
  
بقي أن نختم تصورنا هذا بالقول أن ما ذكر أعلاه ينطبق على كافة أنواع الكتابة الأكاديمية والبحثية والصحفية لكنه يستثنى في الكتابة الروائية – وهو الخلط الذي يقع به معظم الباحثين. فالكتابة الروائية أصلا تعتمد الوصف وبناء صورة للقارئ للأمكنة والأزياء وما يجتهد الروائي في وصفه وتخيله ونسجه في قصته, لذلك فاستعمال المترادف من الكلمات هو جزء من التركيبة البنيوية للرواية – في مختلف الثقافات وليس العربية وحدها. وإلى قاعدة جديدة في الكتابة الأكاديمية في الحلقة القادمة بمشيئة الله  
  
وليد أحمد السيد  
لندن في 18 آذار 2010